

كيف سقط السر وال من حسان

بقلم: فلاس دوروتشيفتش

ترجمها من الفرنسية: أ.د. حامد طاهر

نعم.. هذا هو عنوان القصة .

وفيما يلي ما حدث:

في بغداد , تلك المدينة الكبيرة و الجميلة , كان يعيش تاجرٌ غني ومحترم.

ماذا كان اسمه ؟

عندما كان يلهو تحت قدمي أمه ( أليست المجنة تحت أقدام الأمهات ) ذادته: " حسان السعيد " .. وكان شاباً جميلاً , وذكيّاً , وغنيّاً .. غنيّاً جداً . ولم يكن شيء ينقصه . ومع ذلك فقد قرر ذات يوم أن يتزوج .

وما أن قال حتى فعل . خطب أجمل فتاة في المدينة .

كانت .. كانت .. كلّاً . إن الكلام يعجز عن وصفها .

الموسيقى وحدها هي التي يمكن أن تعبر عن جمالها .

وباختصار , كانت جميلة مثل حبيبتيك يا سيدي .. ومثل حبيبتيك أيضاً , ومثل حبيبتيك يا سيدي العزيز ( وبهذه الطريقة , أتمنى أن أَرْضَى كل الأذواق ) ودعا حسان بغداد كلها إلى وليمة . وكانت فرصة برهن فيها طبأخو المدينة الأسطورية على أنهم يعتبرون بحق في طليعة طبأخي العالم .

وبين قطعان الأغنام , انتشرت شائعة نحس تقول :

" لقد حانت نهاية العالم , فقد عقد حسان العزم على القضاء على كل الخراف , وأن يحشوها بالمفستق , ويقطعها شرائح لضيوفه " ..

وفي ذلك الزفاف البهيج , الغني , الضخم , ذرفت النساء دموعاً رقيقة من الغيرة , في الوقت الذي اتخمن بالشراب , والفطائر , والمربي المزيّنة بزهور الخوخ

, والجوز , والمشمش ..

أما المصبايا , فلم يأكلن إلّا مربّى الليلك , والياسمين المعقودة بالمسكر , وقد أقسمن ألا يذقن شيئاً آخر غيرها , حتى يوم زفافهن .

دارت الرأس بالكثير من ألوان الموسيقى .. أما الشبان , فقد كانوا يقفون على أرجلهم بصعوبة من كثرة ما رقصوا . والخمر , التي يحرمها القرآن الكريم , صرعت الشيوخ وكبار السن , مثل عبد رقيق ارتدى على أقدامك ليقبلك ..

وأخيراً جاء منتصف الليل .. الساعة المنتظرة . النساء اصطحن العروس إلى غرفة نومها البديعة . وبين المتضاحك والمهزر , خفّفتها

من ملابسها . ووضعنها فوق سرير العروس . المزين بستائر الدنتيللا ..

وذهبت المواشط يبحثن عن العريس . وفي صحبة أصدقائه , جاء حسان , وجلس كرجل شاب , حكيم .. جاء بخطى فرحة و نشطة , لكن دون استعجال . لأن الحكيم لا يستعجل أبداً : لا للمقصلة ولا للزفاف ! ولأي شيء جميل يستعجل , ما دامت الحياة نفسها تنساب كسهم ! وبدون استعجال , جلس حسان على الكنبه , في مواجهة السرير ذي الستائر المحلاة بالدنتيللا . وبدون استعجال , أصغى لتهاني أصدقائه , وأمانهم الطيبة . وبدون استعجال , نهض , وقال :

-إنني أحبيكم , يا أصدقاء صباي , وأقول : وداعاً لحياة العزوبية .

وبدون استعجال , اتجه نحو السرير .

لكن في تلك اللحظة , وفجأة .. سقط السروال من حسان . وأحدث المنظر عاصفة من الضحك :

العجائز نبحن كما لو أن أحداً خنقهن . وضحكات النساء المشابات رنت كما لو كانت أجراساً . أما الرجال , فقد انكفأوا على الأرض .. والعروس , التي رأت كل شيء من خلف ستائر الدنتيللا , استولى عليها سرور جنوني , ولكي تخفيه , راحت تحرك بيأس أساورها وحليها .

لقد أغمى على الجميع من الضحك ..

أما حسان فقد ظل في مكانه مشلولاً , وساقاه العاريتان حمران من الخجل . وباضطراب شديد , تناول حسان سرواله , واندفع خارج البيت . وفي الفضاء الواسع , قفز على أول حصان وجدّه , وكان يخص بالتأكيد أحد المدعويين . وهمزه بشدة , ثم ركض بأقصى سرعة , وهو يسمع ضحكاً هائلاً يتبعه ..

بأية سفاسف ترتبط أحياناً سعادة إنسان ! ومثل مجنون , اندفع حسان , بحث حصانه بغضب , إلى الأمام , في مغامرة مجهولة العواقب .

وفي صباح اليوم التالي , أبصر أمامه في الأفق مدينة دمشق . يقال إن خبز المنفي مر . ليس هذا حقاً . خبز المنفي ليس مرّاً ولما حلواً .

لأن أرض المنفي لا تنتج خبزاً قط للمنفيين . خبر المنفي ليس له طعم.

مسكين .. ويدون درهم في كيسه , وجد حسان نفسه في شوارع مدينة غريبة . في المدينة الغربية: كل كلب متوفز لن يلقي بنفسه عليك , كما لو كنت لصاً .. في المدينة الغربية: كل باب ينتظر أن تقتصرعه لكي ينغلق في وجهك في المدينة الغربية: كل حجر مستعد لكي يطير فوق رأسك ..

ليس في المدينة الغربية سوى الأشجار . وهي وحدها التي تستقبلك بمودة , مادة لك فروعها المحملة بالزهور . وكأنها تقول لك: " اشنق نفسك " . وبرهبة , تأمل حسان المدينة الغربية , ثم مضى إلى السوق .. وهناك باع حصانه المجهد , واشترى بثمانه لوزاً محمصاً . وحمل الكيس على كنفه , متوقفاً عند مشربيات المنازل لكي ينادي :

-ها أنا .. جئت من بعيد . أبحث عن أسنان امرأة يمكنها أن تنافس في بياضها ما معي من اللوز .. ها ها اين هنا الأسنان الأكثر بياضاً ؟

وجاءه الصوت من خلف المشربيات:

-ومن يضمن لنا ألما تنكسر أسناننا تحت لوزك ؟

وأجاب حسان بتواضع:

-لا تخشى شيئاً يا سيدتي .. بمجرد أن يشاهد اللوز بياض أسنانك سوف ينهرس من الغيرة . وعندئذ لن يكون بك حاجة إلى تكسيه!

وما أن انتصف النهار , حتى كان كل اللوز قد تم بيعه .

قام حسان بمراجعة أرباحه , ثم اشترى " برتقالاً بدمه "

-أين إذن المشفاة الوردية التي يمكنها أن تنافس برتقالاً الأحمر ؟

وأجابه الصوت من خلف المشربيات:

-هل برتقالك حقيقي كما تقول ؟

-آه يا سيدتي .. إن الغيرة ستحول برتقالتي إلى دموع في اللحظة التي يصبح فيها بين شفاهك.

ولم تكن الشمس قد انحرفت من وسط السماء بعد , حين تم بيع البرتقال كله .

تاجر حسان في كميات ضخمة من الفواكه والمكسرات , واشتهر في السوق , وفتح له اعتماداً , ثم ما لبث أن ترك تجارة المفاكهة لكي يمارس تجارة المجوهرات.

وفي يوم الاثنين , عندما تقتصر زيارة السوق على النساء فقط , تبعاً للتقليد المتبع في بلاد الشرق , قام حسان , ذو اللحية المجددة , بعرض بضاعته , مبتسماً بوداعة:

-سيدتي الجميلة .. سيدتي الجميلة .. هل ترغبين في ألما تذرفي دموعاً بعد الآن ؟ اشترى إذن هذا الحلق .. انظري أية لآلى ؟ إنها دموع حقيقية . الدموع تجمل المرأة . هذا هو القدر .. القسمة .. اشترى هذا الحلق , وثقي بأن الدموع لن تلمع قط في عينيك . اشترى نعمة القدر . أليس من الأفضل أن تتلألأ الدموع في أذنك , بدلاً من عينك ؟ !

-سيدتي الجميلة .. سيدتي الجميلة .. يا ذات الجمال الساحر .. لا تشتري شيئاً .. اكتفي فقط بالمشاهدة . إن نظراتك ستحول زرقه هذه اللآلى التركوازية إلى زرقه السماء . قل لي لحبيبك أو زوجك أن يشتري لك " بروشاً " تركوازياً . حتى يضع فوق صدرك قطعة من السماء ..

-هذا ياقوت , أزرق وعميق مثل البحر . وهذا ياقوت أحمر مثل نقطة الدم . إنه يضيء في الظلمة . سيدتي الجميلة . اطلبي من حبيبك أو زوجك أن يقدم لك هدية من هذا البحر , أو من نقطة الدم تلك .. لكنني أنصحك أن تأخذي نقطة الدم . فإن نقطة الدم تثير من العواطف ما لا يثيره بحر بأكمله !

-سيداتي الجميلات .. سيداتي الجميلات .. وهذه لآلى..

-أنا أخشاه .. فإن المآلى تعنى الدموع!

المصغرة وحدها يا سيدتي .. المصغرة وحدها .. المآلى المصغرة هي التي تسبب البكاء . أما المآلى الكبيرة فإنها لم تبك امرأة قط.

وهكذا بالضحك والملاطفة كان يتاجر حسان . وأصبح غنياً , وفي نفس الوقت , معروفاً في دمشق كلها.

وبلغت أخباره إلى السلطان نفسه . الله وحده هو السلطان . لا سلطان إلا سلطان السلاطين , وهو الله . الله أكبر .

ورغب السلطان في أن يرى محبوب الجميع , وينعم بآرائه وعقله . وفي أثناء المقابلة , قال له السلطان :

-أصعب شيء بالنسبة للسلطان هو اختيار وزرائه.

فانحنى حسان بعمق قائلاً :

- لا أحد يعرف هذا أفضل منك أيها السيد العظيم .. أما بالنسبة لي فلا أعتقد في صعوبته . فإن هذا يحدث عندنا بصورة عادية جداً . إننا نعين شخصاً , أي شخص , ونعمل منه وزيراً , ونعلن : " أيها الناس .. هذا رجل ذكي . عليكم أن تطيعوه . وإلا .. فحذار لرقابكم ! " وبدلاً من أن نجلب على أنفسنا كلام الناس , فإننا نختار الشخص الأكثر ذكاء , ونعمل منه وزيراً ..

وهز السلطان رأسه :

-عجيب أن هذه الفكرة لم ترد على ذهني أبداً . أخذ شخص ذكي , وتعيينه وزيراً . حسان .. إنك رجل ذكي . وقد عينتك وزيراً .

-أوه يا سيدي .. لا تتوقع مني إلما المطاعة.

أصبح حسان وزيراً كبيراً . كان طيباً , وعادلاً , وحكيماً . وأحبه الأخيار , أما الأشرار فخافوه . وأعجب الجميع بقوانينه التي أملأها .  
ولاحظ سكان دمشق كلهم بامتنان :

-أي وزير لنا ! إنه ليس نبيلاً ولما مشهوراً .. يكفيننا أنه ذكي.

ومرت عشر سنوات.

واستدعى سلطان دمشق وزيره المفضل , وقال له :

-حسان .. بارك الله في اليوم الذي تركت فيه موطنك الأصلي . وأتيت تقيم بيننا . وبارك الله في القرآن الذي يوصينا بإكرام الغرباء . ها هي عشر سنوات قد انقضت . وأنا أتبع فيها نصائحك , وأنفذ مشيئتك لصالح دمشق ..

أما الآن , فإنني أريد إليك في أن تصغى جيداً لكلامي , وتنفذ مشيئتي . اسمع يا حسان .. لم يعد أمامي وقت طويل لكي أستفيد فيه من نصائحك الطيبة . فما أقصر الطريق الذي يفصلني عن القبر . حتى أنني لا أكاد أجِد الوقت الذي أنظر فيه خلفي .. وأنا أرى أن دمشق العزيزة سعيدة بحكمك , وأريد أن أضمن لها هذه السعادة .. حتى آخر أيام عمري .

اسمع يا حسان .. ليس لي وريث . وسأعطيك ابنتي العزيزة زوجة لك وأجعل منك سلطان دمشق .. اسمع وأطع .

عندئذ قبل حسان الأرض بين يدي السلطان , وقال :

-لا تنتظر مني غير المطاعة , أيها السلطان . الله وحده هو السلطان . ولما سلطان إلما سلطان المسلمين . وهذا هو ما قاله لي :

"حسان إن مدينة دمشق رائعة . لكن وطنك هو بغداد . هناك فتيات جميلات في العالم . لكن لا يوجد أجمل من تجاعيد الدأم ! والذي يفضل أن يكون سلطان بلد أجنبي على أن يظل مواطناً بسيطاً في وطنه .. ليس أهلاً لأن يكون مواطناً بسيطاً في بلده , ولما سلطاناً

لبلد أجنبي "

هذا هو ما قاله لي سلطان السلاطين , الذي ينبغي أن يسكت أمامه كل سلاطين الأرض.

وهنا تملك سلطان دمشق غضب شديد:

-هكذا أيها المخادم ترفض ان تنفذ إرادة سيدك ؟! إنني أريد أن أجعلك سعيداً وسأجعلك سعيداً.

وهذا هو ضعف السلاطين: يعتقدون أنهم يستطيعون أن يجعلوا الناس مشهورين , وأغنياء , وأقوياء .. وكذلك سعداء!

ولكي يجعل السلطان حساناً سعيداً , وضعه في السجن . لكنه هرب . جهز حصانه , وملاً كيسه بالذهب , ورحل في منتصف الليل .. إلى بغداد.

انطلق هامزاً حصانه . وحيث أنه غاب عشرين سنين عن وطنه , لم يدع الحصان يلتقط أنفاسه طوال الطريق ..

وحين برزت من خلف التلال الأشعة الأولى من الشمس رأى حسان أبواب بغداد.

وبدا له أن الأشجار لا تزهر ولما تثمر في أي مكان في العالم , كما تزهر وتثمر حول بغداد.

وكذلك المآذن .. لا ترتفع في السماء بمثل تلك العظمة التي ترتفع بها في بغداد.

ونزل من فوق حصانه , وسجد مقبلاً الأرض . وفي تلك اللحظة كانت هناك امرأة عجوز متسولة , تجلس في ظل بوابة المدينة , وهي تفلي شعر حفيدتها الصغيرة من القمل . وصاحت الفتاة :

-انظري يا جدتي ما يفعله هذا الرجل .. إنه يأكل الأرض!

فأجابتها المعجوز:

-اسكتي يا حمقاء .. إنه لا يأكلها , بل يقبلها . ثم إن هذا ليس من شأنك . ربما كان هذا الرجل يحب وطنه , وربما يكون أيضاً مخموراً ..  
ومن الأفضل ألا يكون هذا أو ذاك . لكنك يجب أن تعرفي الآن .. فقد أصبحت كبيرة .

وتساءلت الصغيرة في بلاهة :

- وكم عمري الآن يا جدتي ؟

- عمرك .. إنك في الحادية عشرة . فقد ولدت في السنة التي سقط فيها السروال من حسان في ليلة عرسه !

هنا شعر حسان أن وطنه يبصق في وجهه . وخطب نفسه :

-الله أكبر . آه .. الله أكبر . وكريم . ورحيم . إنهم يؤرخون باليوم الذي سقط فيه سروالي . وها هي طفلة صغيرة , تجهل عمرها , تعرف أنه منذ عشر سنوات .. سقط من حسان سرواله !

لقد عشت وجودين . وأصلحت حياتي .. من بائس مسكين إلى إنسان غني . ووصلت إلى قمة السلطة , وحكمت بلداً , وأملت قوانين  
حكيمّة وجعلت دولة بأكملها سعيدة . وكان من الممكن أن أكون سلطاناً .. وأول امرأة فقيرة أقابلها , تبحث عن قمل في شعر حفيدتها  
الصغيرة , لا تستطيع أن تنسى أنه منذ عشر سنوات قد سقط سروالي !

قفز حسان إلى سرج الجواد , وحول وجهه , واندفع في المغامرة ..

هذا هو ما يعلمه من الناس .

لكن الله وحده يعلم ما في أعماقهم .

